حال السلام في الشرق الأوسط مع مشروع «خريطة الطريق»

الصادق المهدي *

■ المسألة اليهودية وما صحبها من شحناء وبغضاء وصدام ظاهرة أوروبية اقنعت قادة يهود بعدم إمكان دمج اليهود في المجتمعات الأوروبية وأنبتت الحركة الصهيونية.

كل العوامل التي ساعدت الحركة الصهيونية لتحقيق أهدافها ابتداء من وعد بلفور، الى قرار الأمم المتحدة في شأن قيام اسرائيل قرارات دولية أمليت على المنطقة من دون أخذ رأي سكانها.

ومشروعات السلام ابتداء من قرار التقسيم، والقرارين ٢٤٢ و٣٣٨ وكامب ديفيد وأخواتها: مدريد وأوسلو وغيرها من الحلقات، هندسات للجانب الدولي فيها اليد العليا. وأثناء الحرب الباردة (١٩٤٦ - ١٩٨٩) صار النزاع الفلسطيني - الاسرائيلي خصوصاً والعربي - الاسرائيلي عموماً وجهاً من وجوه الحرب الباردة.

ومنذ ١٩٦٧، خصوصاً، صارت اسرائيل حليفاً استراتيجياً للولايات المتحدة الاميركية، تحالف عززته حرب ١٩٧٣، وتعززت أركانه حتى صار جزءاً لا يتجزأ من الحقائق الدولية المعاصرة.

١- أثناء حرب الخليج الثانية (١٩٩١) نما تحالف عربي - اميركي ضمن التحالف الدولي الذي قادته الولايات المتحدة لإخراج العراق من الكويت، وأدى انتصار هذا التحالف الى تبشير الولايات المتحدة بنظام عالمي جديد كان من ثماره عقد مؤتمر مدريد للسلام في ١٩٩٢. إعلان مدريد مهّد لاتفاق اوسلو وقامت على اساسه تطورات وفاقية، لكن التعنت الاسرائيلي الذي صحب تراجع حزب العمل وتمدد اليمين الاسرائيلي نقض التطورات الوفاقية عائداً بالموقف الى مربع المواجهة الحادة.

٢- كانت زيارة شارون الاستفزازية للحرم الشريف أذان اندلاع الانتفاضة الثانية (أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠)، وفي مقابل القمع الإسرائيلي المتصاعد المسنود بالتمدد اليميني المتزايد تعسكرت الانتفاضة وتعاظم الى جانب طابعها الوطني طابع إسلامي. الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان هو الذي دفع في اتجاه حزب الله في جنوب لبنان. والقمع الاسرائيلي في فلسطين المحتلة هو الذي ألجأ المقاومة إلى مزيد من العنف ومزيد من الانتماء الأصولي.

٣- زعزع نشاط المقاومة أمن اسرائيل وعزز تمدد اليمين الاسرائيلي بصورة أتت بأرييل شارون رئيساً للوزراء باعتباره الأقدر على سحق المقاومة فانطلق في برنامجه الذي اعطى الأمن، بمعنى قمع المقاومة من دون اعتبار للأبعاد السياسية، أولوية قصوى، مثلما فعل رصفاؤه في كل الظروف المماثلة تاريخياً، وكانت النتيجة كما كانت في تلك الظروف المماثلة زيادة في دوامة العنف وتراجعاً في حال الأمن.

٤- حاول الرئيس الاميركي السابق بيل كلينتون إنجاح الصلح الفلسطيني - الاسرائيلي في نطاق اتفاق اوسلو محاولة بلغت قمتها في لقاء الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات ورئيس الوزراء الاسرائيلي يوميذاك ايهود باراك، لكن المحاولة اخفقت لأن المعروض اسرائيلياً لم يبلغ الحد الادنى المقبول فلسطينياً، في ذلك الوقت كانت الانتخابات الاميركية الرئاسية على الابواب (عام ٢٠٠٠) وكان المرشح الجمهوري جورج بوش عاتباً على الرئيس الاميركي مغامرته بوزن الولايات المتحدة في قضية فشلها أقرب من نجاحها.

٥- انتخب بوش رئيساً للولايات المتحدة بصورة غير حاسمة ولم تقنن الا بقرار محكمة الاستئناف العليا. هذه الرئاسة المهتزة واجهت احداث ٢٠٠١/٩/١١ في نيويورك وواشنطن. ومع ما صاحبها من آثار مأسوية فادحة، فإن الأحداث غيرت المزاج السياسي في اميركا

> **ان لإسرائيل الآن اهمية كحليف ضد الارهاب، لكن هذه الاهمية ذات الجدوى العسكرية غير واردة في المجال السياسي، بل التحالف مع اسرائيل يضر الولايات المتحدة في حربها على الارهاب من الناحية السياسية. التحالف مع اسرائيل يكرس بغض الشعوب العربية والاسلامية ورفضها الولايات المتحدة، ما يوسع فرص تجنيد الناشطين ضد المصالح الاميركية.**

وأدت الى التفاف الاميركيين وراء بوش بصورة منقطعة النظير. وعمّد الاميركيون بوش سيفَهُم في وجه الارهاب. هنالك اتجاه في يمين الحزب الجمهوري موقن بجدوى القوة العسكرية الاميركية في ترتيب اوضاع العالم ومصمم على فاعلية الاحادية الاميركية في ادارة السياسة الدولية ومؤمن بخطة على الصعيد العالمي مشابهة لخطة شارون على الصعيد الاقليمي في الشرق الاوسط: خطة مندفعة نحو غاياتها «أصم عن غضب من حوله ورضا».

أحداث ٢٠٠١/٩/١١ عززت العلاقة بين هذين الخطين الاميركي والاسرائيلي على أساس أن العدو المستهدف في الحالين واحد هو «الارهاب»، وأن اسلوب مواجهته كذلك واحد: القمع العسكري. هذه هي الخلفية التي هيأت المجال للحرب الانكلوامريكية على العراق.

٦- سلوك النظام العراقي في كل الملفات عزله وأتاح الفرصة لإعلان الحرب عليه واحتلال بلاده. لكن الحرب لم تحظ بغطاء دولي وواجهت رفضاً شعبياً في البلدان الغربية ورفضاً دولياً فرنسياً المانياً روسياً صينياً. ومع انها حظيت ببعض التأييد العربي، الا ان الشعوب العربية رفضتها. ضعف التأييد السياسي والديبلوماسي للحرب على العراق، جعل الحليف البريطاني غير الخاضع لعوامل التشدد اليميني الاميركي المشار اليها، في موقف ضعيف داخل مجلس الوزراء وفي مجال الرأي العام البريطاني. لذلك ألحّ الحليف البريطاني على أن تكون اهداف الحرب في العراق واضحة وأن تقترن الحرب بجهد دولي لحل المسألة الفلسطينية، وهما مطلبان يصلحان لمخاطبة الشعوب العربية في موقفها الرافض للحرب على العراق والمتهم للغرب بالانحياز الى إسرائيل. لذلك زاد الاهتمام اثناء الحرب وبعدها بإيجاد حل للنزاع الفلسطيني - الاسرائيلي، فرسمت «خريطة الطريق» الرباعية بقيادة الولايات المتحدة ومشاركة الاتحاد الاوروبي وروسيا والامم المتحدة. والظروف المذكورة اجبرت الرئيس الاميركي بوش على القيام بمبادرة كان عابها على سلفه كلينتون.

٧- إن في خريطة الطريق عيوباً جوهرية بحيث يصعب معها أن تجد قبولاً تاماً فلسطينياً وعربياً، عيوباً ستطرق اليها في ما بعد. ولكن، بصرف النظر عن تلك العيوب، فإن كيفية ادارتها وإخراجها وتقديمها كما كان في قمتي شرم الشيخ والعقبة قلصت فرص نجاحها. ان المرء ليدهش كيف فاتت هذه الحقائق على ساسة ومختصين واداريين وتنفيذيين مؤهلين على مستوى دولي:

أولاً: غياب ممثلي الرعاة الثلاثة للخريطة، الامم المتحدة والاتحاد الاوروبي وروسيا، أخل بالتوازن وأهدر الحكمة في رباعية الرعاية.

ثانياً: طريقة معاملة الولايات المتحدة المصنفة حليفة لإسرائيل ومعاملة اسرائيل نفسها لرئيس الوزراء الفلسطيني لونته حبيباً للظلمة وكانت قبلة في المكان الخطأ.

ثالثاً: انتقاء جيران اسرائيل المدعوين للقاء وتغييب سورية ولبنان آثار شبهات للخريطة من دون مبرر.

رابعاً: عدد من الذين حضروا اللقاء يسعون لإبرام هدنة مثلما حدث في مرحلة ماضية مع حزب الله في جنوب لبنان. منظمات المقاومة الفلسطينية مخاطبة بهذه الهدنة. ولكن ادبيات اللقاء صنفت هؤلاء ارهابيين. ان كانوا كذلك فلا معنى للحديث عن هدنة معهم. وإن لم يكونوا كذلك فإن هذا الوصف استفزاز لهم لا معنى له.

خامساً: الرئيس ياسر عرفات أبدى نوعاً من التعاون مع المشروع، وتحييده او كسبه يساعد رئيس الوزراء الفلسطيني. لكن إخراج الخريطة حاول بقدر الإمكان إهانة السيد ياسر عرفات من دون مبرر.

هذه العوامل الخمسة من شأنها أن تعرقل أو تجهض «خريطة الطريق».

٨- وكأن الأمر محتاج الى اندفاعات الحكومة الإسرائيلية، فقد سددت للخريطة طعنة نجلاء بمحاولة اغتيال السيد عبدالعزيز الرنتيسي واصداء قمة العقبة ما زالت ماثلة. ان اسرائيل ستواصل الانحراف يميناً مطمئنة الى تفوقها العسكري والى تحالفها مع الولايات المتحدة ضد الارهاب تحالفاً تدعمه رؤية مشتركة لماهية الارهاب.

٩- أما من الناحية العربية، فإن ما حققته المقاومة في جنوب لبنان وفي فلسطين المحتلة، يؤكد أن شأن المقاومة الشعبية سيزداد وزناً. ليس هذا فحسب بل ان تناقص شرعية كثير من النظم العربية وزيادة التحول الديموقراطي فيها سيزيد من الحضور الشعبي والتأثير الشعبي في القرار العربي. وكلما زاد وزن الشعوب العربية في القرار العربي كلما كان هذا القرار أكثر تمسكاً بحد أدنى من العدل لا تستطيع القيادات أن تتنازل عنه. نتيجة هذا التحليل هي أن عوامل موضوعية وذاتية تحول دون توصل أطراف النزاع لحل عادل مستدام بينهم. فما العمل؟

١٠- مثلما خلقت الاسرة الدولية، كما أوضحنا، هذه المشكلة فإن عليها ان تعمل على حلها بصورة تتجاوز التوسط والاستجداء، لتتخذ طابع التحكيم المنفذ بالية دولية تقودها الولايات المتحدة، اي سيناريو دايتون شرق أوسطي. ان الحد الادنى الذي يمكن أن يحقق حلاً يجد قبولاً واسعاً يوجب تحقيق المطالب الخمسة الآتية:

- انسحاب اسرائيل من دون قيد أو شرط من كل الاراضي المحتلة العام ١٩٦٧.

- حق الشعب الفلسطيني المشرد منذ العام ١٩٤٨ في العودة أو التعويض وفق القرار الدولي ١٩٤.

- تصفية المستوطنات الاسرائيلية كافة في الاراضي المحتلة.

- حق أهل فلسطين في تقرير مصيرهم.

- الغاء قانون العودة الاسرائيلي الذي يمنح يهود العالم - وهم الاغلبية الساحقة في اسرائيل - حقاً تلقائياً في النزوح الى اسرائيل واكتساب حق المواطنة فيها. وجعل اسرائيل دولة طبيعية تعطي سكانها حق مواطنة متساوياً وتنظم الهجرة اليها بأسس موضوعية، لأن اعتبار اسرائيل المدججة بأسلحة الدمار الشامل وطناً مستحقاً ليهود العالم وعددهم ١٨ مليوناً معناه الابقاء على قنبلة دمار شامل قابلة للانفجار في المستقبل.

١١- ولكن، ما الذي يجعل الولايات المتحدة تقدم على هذه الخطوة السلمية غير المنتظرة؟.

أ- كانت اسرائيل حليفاً مهماً للولايات المتحدة في الحرب الباردة لا سيما بعد العام ١٩٦٧، هذه الاهمية لم تعد واردة.

ب - ان لإسرائيل الآن اهمية كحليف ضد الارهاب ولكن هذه الاهمية ذات الجدوى العسكرية غير واردة في المجال السياسي، بل التحالف مع اسرائيل يضر الولايات المتحدة في حربها على الارهاب من الناحية السياسية. التحالف مع اسرائيل يكرس بغض الشعوب العربية والاسلامية ورفضها الولايات المتحدة، ما يوسع فرص تجنيد الناشطين ضد المصالح الاميركية.

ج - اقتنعت الولايات المتحدة بضرورة التحول الديموقراطي في البلدان الاسلامية والعربية لأنها وجدت أن التناقض بين الحكومات والشعوب وما يمارس من قمع يغذي الاحتجاج والعنف ويستهدف اميركا كحام للحكومات المعنية. اذاً الديموقراطية مطلوبة لتجفيف بعض مصادر الارهاب، لكن الديموقراطية ستأتي بقيادات اكثر تشدداً في المطالب الوطنية.

د - القمع غير المصحوب بحلول سياسية عادلة سيغذي العنف والعنف المضاد، وهذا من شأنه أن يشجع الهجرة المعاكسة من اسرائيل، في الوقت الذي يزداد التوسع الديموغرافي الفلسطيني في كل مجالاته في اسرائيل نفسها، وفي الارض المحتلة، وفي معسكرات اللاجئين. هذه المعادلة ستفرض نفسها على الواقع ولن يجدي معها تفوق اسرائيل العسكري.

هـ - مهما كان القرار الاميركي مشوهاً بفعل اللوبيات، فالقرار الاميركي يتخذ في مجتمع مفتوح وقابل للمراجعات في ضوء الحقائق، فالتجربة اكدت لنا ان سياسة الولايات المتحدة نحو السودان وقد كانت سياسية مواجهة راجعت نفسها واتخذت طابعاً اكثر واقعية الآن.

كثير من الكتاب العرب يعتبون علينا أننا لا نرفض الدور الاميركي في الشأن السوداني، ونحاول ان نبين لهم أن الدور الاميركي المشدود لاعتبارات ايديولوجية في الشرق الاوسط يتسم بطابع براغماتي مختلف في السودان.

و - ان ما يحدث الآن في فلسطين المحتلة، وفي العراق المحتل يقوم على اساس التفوق العسكري والإملاء. لكن الحقائق اليومية هناك تبرز حقيقة أن التفوق العسكري لا يمنع التراجع السياسي. ان للتفوق العسكري حدوداً. هذا هو الدرس المستفاد من تجارب الاستعمار في كل مكان والتجربة في فلسطين والعراق ليست بدعاً في التاريخ. ان مصالح الولايات المتحدة القومية، وحتى مصالح الاسرائيليين الحقيقية المبرأة من الهوس الايديولوجي، تؤشر في اتجاه واحد هو ان الأمن والسلام والعدل، مفاهيم مترابطة وموجبة لحل دولي حاسم لإشكال خلقته الأسرة الدولية وغرسته في منطقة عرفت التعايش السلمي الديني والثقافي حتى في ظل الأمويين والعباسيين والعثمانيين.

* رئيس حزب الأمة القومي المنتخب - نيسان (ابريل) ٢٠٠٣.
إمام الأنصار المنتخب - كانون الثاني (ديسمبر) ٢٠٠٢. آخر رئيس وزراء سوداني منتخب ١٩٨٦.

لئلا تتكرر التجربة العراقية

الديموقراطية وموقف الليبراليين

كرم الحلو *

■ تبرأ العرب جميعاً من نظام صدّام البائد ونفضوا أيديهم من ارهابه وشروره باعتباره استثناء في القمع والعدوان والتسلّط. إلا أن الحال العراقية على فظاعتها واستثنائيتها لم تكن في كثير من ملامحها، فريدة وطارئة على السياسة العربية، كما يريد البعض أن ينظر اليها من زاوية خصوصيتها العراقية. فثمة خلل عميق في السياسة العربية، إن على صعيد الممارسة أو على صعيد الفكر والايديولوجيا يجمع بدرجات متفاوتة الأنظمة العربية على اختلافها وتناقض شعاراتها ولافتاتها الإيديولوجية والعقائدية يمكن اعتباره عاملاً أساسياً وأولياً في المحن العربية المتتالية.

ثمة أزمة في فهم موقع الحاكم ودوره وموقع المعارضة ودورها ومكانتها في السياسة الوطنية. أما مظاهر هذه الأزمة فتتمثل في:

أ - تآكل النخب السياسية الحاكمة وافتقادها الشرعية الشعبية، فوجودها في الحكم يستند إما الى شرعية تقليدية باتت في موضع الشك والوهن والاهتزاز، وإما الى شرعية عصبية عشائرية أو طائفية لم تعد قادرة على مواجهة التحديات الراهنة ولم تعد تشكّل ضماناً للوحدة الوطنية، وإما الى شرعية كاريزمية باتت تفتقد مقومات استمرارها في غياب «البطل التاريخي» والأهداف الكبرى التي كانت تحرك مرحلة النهوض والصعود. حتى الدولة الوطنية ذاتها أصبحت تفتقد الشرعية الشعبية بعد أن فشلت سواءً في مجالي البناء والتنمية أو في مجالي التحرير والتصدي للمشاريع الصهيونية والاستعمارية.

ب - أزمة العلاقة بين الشعوب من جهة والنخب الحاكمة من جهة أخرى. فهذه النخب باتت تشكل قوة قاهرة مستقلة قائمة فوق المجتمع لا تعبأ بهمومه ومعاناته ولا تأخذ في الحسبان تطلعات أجياله ومثقفيه الى التقدم والرفاه والحرية، تحتكر الثروة والمنافع والخير العام، تقبض على المقدرات والمؤسسات والسلطات العامة، تصادر المجتمع المدني وتسخّره لغاياتها ومآربها. وهكذا باتت المواطن غير مكترث بمشاريع السلطة، غير عابئ بما تطرحه من أهداف، حتى باتت بينه وبينها هوة عميقة من الفصام والقطيعة.

ج - الخلل العميق في موقع الحاكم في الخطاب السياسي العربي، فهو «البطل» الفذ و«القائد التاريخي» الملهم و«روح الأمة» وأملها في الخلاص والحرية. وهو «الأب» و«الراعي» الواحد الأوحد، من دونه الأمة مهددة بالسقوط والهلاك.

هذا التقديس للحاكم ودوره ومكانته جعلته يتربع وحيداً في قمة الهرم السياسي، فهو الآمر والناهي، وهو الحكم المطلق الصلاحية. وفي ظل هذه الهالة من التقديس والأحادية يسقط مبدأ المعارضة وينتهي حق الاختلاف، وتصبح السلطة عاجزة عن استيعاب المتغيّرات والقوى الاجتماعية الصاعدة فتتحول الى القمع والعنف لحماية تفردها بالسلطة واحتكارها للأجهزة الإدارية والأنشطة الاقتصادية. وإذ يسود الشك والريبة بينها وبين الشعب يغدو الأمن هاجسها الأكبر والضاغط فتعزّز من اعتمادها على الأجهزة الأمنية والاستخبارات لتغدو دولة «أمنية» تسلطية يحكم علاقتها بالناس الخوف المتبادل وتوازن الرعب.

قاد هذا الخلل في موقع الحاكم ودوره الى خلل أكبر وأفدح على مستوى الفصل بين السلطات وفي موقع الدساتير والقوانين والمؤسسات، حتى ذهب بعضهم الى أن ليس لدى العرب نظم المؤسسات، حيث الدساتير والأنظمة والقوانين تتكيّف وفق القوى المهيمنة على السلطة ويتجاوزها رأس السلطة على هواه من دون رقابة ولا محاسبة. وفي هكذا حالة يكون دور البرلمانات والمعارضة مقنّناً ضمن المسموح به وبما يشكّل مبرراً للسلطات وتغطية لتفردها واستئثارها. حتى أن بعض الزعماء العرب لم يتورّع، إزاء أزمات واجهت أنظمته، عن المجاهرة باختراق القوانين والدساتير والعبث بمضامينها.

هذا كله انما يدل على أن العالم العربي يعاني أزمة ديموقراطية بعد أكثر من قرن على انبعاث أفكار الحرية والدستورية والعلمانية وفصل السلطات. فقد استنتج خميس حزام والي في أحدث الدراسات عن واقع الديموقراطية في العالم العربي - إشكالية الشرعية في الأنظمة السياسية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣ - «ان السلطة الاستبدادية تعدّ بصفة عامة هي القاعدة وأن الديموقراطية هي الاستثناء».

على أساس هذا الواقع السياسي المأزوم نفهم محنة العراق وأشباهها من المحن العربية مهما حاول البعض التفسير والتبرير بذرائع المطامع الاستعمارية والصهيونية التي لا تقلّل من أخطارها على الأمة العربية، ومما تضمره للعرب من مخططات تهدف الى السيطرة على ثرواتهم ومقدراتهم وقرارهم. ولكننا في المقابل نرى أن سياسة قهر الشعوب وقمعها ومصادرة حرياتها واغتصاب مجتمعاتها الأهلية والمدنية على النحو الذي رأيناه، مهّد الطريق أمام هذه الأخطار والمخططات ونال من مناعة الإنسان العربي وصموده وقدرته على الرفض والمقاومة. فهل كان في وسع الاستعمار والصهيونية اختراق مجتمعاتنا وشعوبنا لو كانت تتمتع بحد معقول من الحرية والكرامة؟ هل كان في الإمكان استباحة أمتنا على هذا النحو لو كانت بنانا السياسية والاجتماعية والإنسانية على قدر من الاندماج القومي والوطني والمجتمعي، ولو كان الحكام العرب على قدر مقبول من التواصل مع شعوبهم ومجتمعاتهم؟

إن شعوباً مقهورة منتهكة حقوقها وكراماتها لا تقوى على جبه مطامع الاستعمار والصهيونية ومخططاتهما العدوانية، ولم يعد ممكناً خداع الشعوب بالشعارات واللافتات الإيديولوجية، فيما هي تُقاد الى ما يشبه الانتحار الجماعي، لم يعد ممكناً استمرار سياسة التسلّط والاستبداد تحت أي ذريعة أياً تكن شرعيتها الشكلية.

كل ذلك يجعل تحوُّل العالم العربي نحو الديموقراطية أمراً لم يعد ممكناً تأجيله، إذ لا مفرّ من هذا التحوُّل لئلا تتكرر تجربة العراق المرة.

لكن ثمة إشكالاً يواجهه هذا الطرح على يد غلاة الأصوليين يتمثّل في المماهاة العمياء التي يمارسها هؤلاء على الفور، بين الاستعمار والصهيونية وبين الديموقراطية وحقوق الإنسان والدستورية العلمانية. فالمناداة بهذه القيم هو في نظرهم «اتباع للغرب وخيانة للأمة وقضاياها» وهو كذلك «دفاع عن الهيمنة الغربية على شعوب العالم، وطمس العلل ونقائص وعورات الحضارة الغربية» كما هو في الآن ذاته «تعامٍ عن جرائم الاستعمار والصهيونية بحق أرضنا وأمتنا». إلا أن ما لا يريد أن يفهمه هؤلاء، هو أن تبنّي القيم الليبرالية الذي طرحه الليبراليون العرب منذ القرن التاسع عشر ولا يزالون يصرون على طرحه، هو وحده المخرج الممكن لمقاومة التخلف والارتهان والتبعية. فهل فعلت الأنظمة التسلطية بشعوبها، والنظام العراقي نموذجاً، من الكبت والقمع وتبديد الثروات، الى الإرهاب والاعتقال والتعذيب، وصولاً الى المجازر الجماعية، غير ما فعله الاستعمار والصهيونية؟

إن القيم والمثل والمبادئ التي نادى وينادي بها الليبراليون العرب هي تراث إنساني عام عالمي، وهي حصيلة نضالات البشرية عبر تاريخها كله، وليست «مفرزات استعمارية» كما يحلو للأصوليين أن يفهموها. وما تخلّف العرب، مهما كان الدور الذي مارسه الاستعمار والصهيونية، إلا لعدم ادماج تلك القيم في صلب سياستهم وثقافتهم وفكرهم وتكويناتهم الاجتماعية والسياسية.

إذاً الليبراليون العرب لا يجهلون مؤامرات الاستعمار والصهيونية وقد كانوا منذ القرن التاسع عشر، الى الآن، الأسبق والأعمق في ادانتهم لقبائح المدنية الغربية ولانحراف الغرب عن القيم الليبرالية، الذين كانوا الرواد في رفع لوائها.

إن الليبرالية العربية، على رغم كل العوائق والإشكالات التاريخية التي تواجهها، وعلى رغم كل الشكوك المغرضة التي يرفعها في وجهها الأصوليون، تبقى الحاملة لهمّ المستقبل العربي، والقادرة على التصدي لتحدياته مهما بدا ذلك صعباً أو مستحيلاً. كما أن الليبراليين العرب يدركون جيداً أن حل أي اشكالية من الاشكاليات التي تواجه الأمة العربية، من اشكالية الاحتلال الى اشكالية الصهيونية، الى اشكالية التجزئة، يبدأ ولا يمكن أن يبدأ، إلا من الاعتراف بالإنسان العربي وحقوقه الديموقراطية. كما يدركون كذلك ان الرد «على احتلال العراق وتهديد لبنان وسورية ودبابات شارون ومشروع المنطقة الحرة الشرق الأوسطية الأميركية» الذي «يقضّ مضاجع الأصوليين» ينطلق ولا يمكن أن ينطلق، إلا من الدولة الديموقراطية الليبرالية، أما الأنظمة التسلطية التي تتغذّى في وجودها وهيمنتها من دعاوى الأصوليين «الغيارى على الذات والهوية والتميّز» ومن بؤسهم الإيديولوجي، فليست إلا الند للاستعمار والصهيونية وديمومة التخلف.

* كاتب لبناني.

ألف وجه ألف عالم

«عمال البحر» لفيكتور هوغو: التقدم وسط مناخ رومانطيقي

■ إذا استثنينا رواية فيكتور هوغو الضخمة «البؤساء» التي هي حال على حدة في تاريخ الفن الروائي على أية حال، يمكننا أن نقول أن رواية هذا الكاتب «عمال البحر» هي الأشهر بين أعماله الكثيرة، والأكثر اثارة للمشاعر. وكذلك هي الرواية التي نالت، في زمنها، من اجماع النقاد ما لم ينله أي عمل آخر لهوغو. ولا يعود هذا الاجماع فقط الى واقع ان هوغو حين كتب «عمال البحر» كان قد دخل مرحلة النضج المطلق، إذ أنه كان في الرابعة والستين حين نشر هذه الرواية في العام ١٨٦٦، بل الى تلك القوة، في الموضوع والأسلوب، التي تجعل من «عمال البحر» رواية انتقالية بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ولا سيما من ناحية جمعها العجائبي بين أعلى درجات الحس الرومانطيقي - الذي طبع معظم أعمال هوغو - وبين النزوع الى التقدم، في العلم وفي التقنيات. والحقيقة أن فيكتور هوغو تمكن من الوصول الى هذه المعادلة، من دون أن يضحي بنزعته الرومانطيقية لحساب نزعته التقدمية ولا بهذه لحساب تلك. لقد عرف هنا كيف يقيم توازناً بين العنصرين مدهشاً، وليس فقط في الموضوع، بل في الصور التي رسمها قلمياً، وخصوصاً في رسمه لشخصية جيليا، ذلك البحار الاستثنائي، الآتي من اللامكان، والذي يلعب في الأحداث دوراً رئيسياً ومزدوجاً: فمن جهة هو الرومانطيقي العاشق الذي، مثل عشاق الأزمان القديمة، يضحي بكل شيء لكي تسعد معشوقته ولو مع شخص آخر، وهو من جهة أخرى، منقذ التقدم وزمن الآلة التقني من براثن العمال الذين يرون في التقدم وما يستتبعه زوالاً لهم ولأنماط عملهم القديمة. فإذا أضفنا الى هذا أن «عمال البحر» تبدو في البداية على شكل حكاية خرافية نجد ما يشبهها كثيراً في «ألف ليلة وليلة» مثلاً، حيث يعد صاحب السلطة يد ابنته لمن يحقق مأثرة ما، فينطلق المتبارون خائضين الصعاب، ثم تبدو في النهاية عملاً واقعياً يسير على ايقاع زمنه في ترويجه للتقدم والانتصار له، نفهم كيف أن فيكتور هوغو اعتبر في «عمال البحر» رائداً كبيراً من رواد القرن العشرين.

● كما يدل عنوانها، تدور أحداث «عمال البحر» في مدينة فرنسية بحرية. وتبدأ مع العجوز ليتييري، صاحب المراكب، الذي كان الآن أول من يمتلك سفينة تعمل على البخار، وكانت في ذلك الحين تعتبر من آيات التقدم التقني، إذ راحت تمخر العباب مؤمّنة النقل بين سان - مالو وغيرتيزي، من ناحية مبدئية كان لدخول مثل هذه السفينة الحديثة خط العمل أن يسر الناس جميعاً، غير أن الصيادين والبحارة العاملين في المنطقة لم يبدوا أي سرور أو رضا عن تدخل عصر الآلة هذا في حياتهم التقليدية... انها بالنسبة اليهم منافساً قوياً قد يكون من شأنه ان يدمر حياتهم وعملهم. السفينة البخارية «لا دوراند» إذاً هي العدو الآن. ولمحاربة هذا العدو القوي والخطر، يقرر بحار عجوز ذات يوم أن يتسبب في اغراقها، تخلصاً منها من ناحية، وردعاً في المستقبل لمن يريد استخدام مثيلاتها. وهكذا إذ تغرق السفينة جزئياً يكتشف صاحبها ليتييري ان من الممكن، بعد، انقاذها إن وجد من يساعده في تعويمها... لكن المشكلة هي أن أياً من الصيادين والبحارة، لا يتقدم للمساعدة. وليتييري وحده لا يمكنه فعل أي شيء. وإذ يقف المالك العجوز عاجزاً أمام سفينته وهي تغرق تخطر في باله فكرة: انه على استعداد لمنح يد ابنة أخيه الحسناء ديروشيت، لمن يساعده على اجتياز محنته وانقاذ السفينة. وإذ تبقى دعوته أول الأمر من دون مستجيب، يطلع فجأة البحار الشاب جيليا، الذي لا يعرف أحد عن ماضيه وأصوله شيئاً ويقبل الرهان، هو الذي يشعر بقية أهل المنطقة بالكراهية حياله، بسبب صمته الدائم وغموضه... وكذلك لأن أهل المنطقة كانوا يعرفون مدى هيامه بديروشيت ابنة منطقتهم المحبوبة، على رغم الموقف من عمها. وهكذا يشمّر جيليا عن ساعديه ويبدأ العمل لانقاذ آلات السفينة التي لم تتمكن مياه البحر، بعد، من اتلافها. وهو يعرف، على أية حال، انه سيلاقي دون النجاح مصاعب جمة، بل سيضطر حتى الى المخاطرة بحياته... ولا سيما حين يدخل المغارة البحرية وحيداً ويبدأ محاولاته، مضطراً في طريقه الى مجابهة سلبية العمال الآخرين، وتحرك مياه البحر العاصفة، والكثير من الحيوانات المفترسة. لكنه في نهاية الأمر ينجح في مسعاه، وينقذ السفينة، أو على الأقل آلاتها. لكنه في اللحظة التي يبدو فيها سعيداً بما أنجز، وأكثر سعادة لكونه سوف يفوز بفؤاد محبوبته الحسناء، يكتشف ان هذه انما تحب شخصاً آخر، هو القسيس البروتستانتي الشاب ايبينيزير، الذي كان سبق لجيليا نفسه أن أنقذه قبل فترة من موت محقق إذ وجده غافياً فوق صخرة بدأت تغزوها مياه البحر. إذاً، بعد شيء من التردد، يقرر جيليا، وقد رأى أن عواطف الفتاة متجهة بصدق واخلاص ناحية القسيس، يقرر التضحية مرة أخرى بغرامه... لكنه - مثل معظم الرومانطيقيين الأبطال الذين نلمحهم في الروايات - لا يكتفي بأن يتخلى عن «المكافأة» التي كان وُعد بها، بل انه يفعل أكثر من هذا: يساعد العاشقين على الهرب، بعد أن يرفض ليتييري رفضاً قاطعاً أن يزوج ابنة أخيه من رجل دين بروتستانتي، وإذ ينجح جيليا في «مشروعه» الجديد القائم على أسمى درجات التضحية، يطالعنا في المشهد الأخير العاشقان داخل المركب الذي يبتعد بهما الى حيث سيعيشان سعادتهما. وهما إذ ينظران ناحية المدينة وشاطئها يخيل اليهما انهما يريان شبح انسان واقف بهدوء فوق الصخرة نفسها التي كاد القسيس يموت عليها ذات يوم. والحقيقة ان الشبح لم يكن خيالاً، بل كان جيليا نفسه وقد وقف هناك ينتظر الموت الذي لم يبق له سواه عزاء على كل ما حدث له، و«مكافأة» أخيرة على جهوده وتضحياته.

● ان هذا المصير الجدير بأعتى الرومانطيقيين، جعل مؤرخي حياة فيكتور هوغو، ومحللي أعماله يقولون ان الحزن الذي يتسم به، على الأقل، القسم الثاني من هذه الرواية، يكاد يكون بلا مثيل في تاريخ الفن الروائي. انه حزن عميق هاجسي وعنيد. حزن يقلب الرواية رأساً على عقب، إذ بعدما كانت في قسمها الأول انشودة لمجد العمل، وتغنياً بالتقدم وبعصر الآلة الآتي من دون أن تتمكن كل الصعوبات من وأده، ها هي تتحول هنا الى «ألم دافق يعتصر بطل الرواية ويشبه الألم الطالع من أفق البحر الحزين. ان جيليا، في ازدواجيته هنا يبدو، من ناحية، مشاركاً في القوة الجديدة التي تولد من رحمها فكرة التقدم، ومن ناحية أخرى يعيش استسلام الرومانطيقيين وبالتالي مصيرهم البائس». وهكذا، في نهاية الأمر، يحدث لآلات السفينة البخارية، «التي كانت تعد أول الأمر بأن تكون ايذاناً بولادة العالم الجديد، أن تصبح ذات سمات تقربها، في منظرها ورواية، وحتى في مجال الكتابة الفكرية المتأرجحة دائماً بين أقصى درجات الرومانطيقية ونزعات التقدم الاشتراكية؟

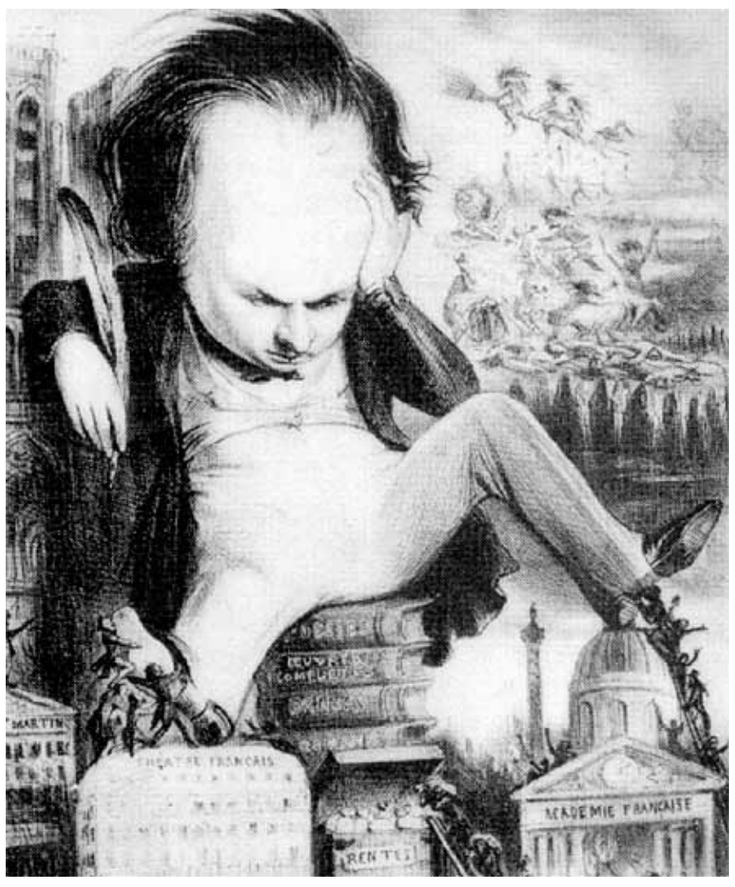

فكتور هوغو في رسم يمثله بين الرومانطيقية والحداثة.

ابراهيم العريس